من قرأ سورة الحج أعطى من الأجر كحجة حجها وعمرة اعتمرها بعدد من حج واعتمر فيما مضى وفيما بقي[1].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة المؤمنون مكية

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾.

﴿قد﴾ نقيضة لما هي تثبت المتوقع ولما تنفيه ولا شك أن المؤمنين كانوا متوقعين لمثل هذه البشارة، وهي الإخبار بثبات الفلاح لهم فخوطبوا بما دل على ثبات ما توقعوه، الفلاح الظفر بالمراد وقيل: البقاء في الخير و﴿أفلح﴾ دخل في الفلاح كأبشر دخل في البشارة ويقال: أفلحه أصاره إلى الفلاح، وعليه قراءة طلحة بن مصرف أفلح على البناء للمفعول وعنه أفلحوا على أكلوني البراغيث أو على الإبهام، والتفسير وعنه أفلح بضمة بغير واو اجتزاء بها عنها كقوله: فلو أنّ الأطبا كان حولي.

فإن قُلْتَ: ما المؤمن؟ **قُلْتُ:** هو في اللغة المصدق وأما في الشريعة فقد اختلف فيه على قولين: أحدهما أنّ كل من نطق بالشهادتين مواطئًا قلبه لسانه، فهو مؤمن والآخر أنه صفة مدح لا يستحقها إلا البرّ التقيّ دون الفاسق الشقيّ[2].

﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢﴾.

الخشوع في الصلاة خشية القلب وإلباد البصر عن قتادة، وهو إلزامه موضع السجود وعن النبي ﷺ أنه كان يصلي رافعًا بصره إلى السماء، فلما نزلت هذه الآية رمى ببصره نحو مسجده[3] وكان الرجل من العلماء إذا قام إلى الصلاة هاب الرحمن أن يشدّ بصره إلى شيء، أو يحدّث نفسه بشأن من شأن الدنيا وقيل: هو جمع الهمة لها والإعراض عما سواها، ومن الخشوع أن يستعمل الآداب فيتوقى كفّ الثوب والعبث بجسده، وثيابه والالتفات والتمطي والتثاؤب والتغميض وتغطية الفم والسدل والفرقعة والتشبيك والاختصار وتقليب الحصا. روي عن النبي ﷺ أنه أبصر رجلاً يعبث بلحيته في الصلاة فقال: «لو خشع قلبه خشعت جوارحه»[4] ونظر الحسن إلى رجل يعبث بالحصا وهو يقول: اللهمّ زوّجني الحور العين، فقال: بئس الخاطب أنت تخطب وأنت تعبث.

فإن قُلْتَ: لم أضيفت الصلاة إليهم؟ **قُلْتُ:** لأنّ الصلاة دائرة بين المصلي والمصلى له، فالمصلي هو المنتفع بها وحده وهي عدّته وذخيرته، فهي صلاته وأمّا المصلى له فغني متعال عن الحاجة إليها والانتفاع بها.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣﴾.

﴿اللغو﴾ ما لا يعنيك من قول: أو فعل كاللعب والهزل وما توجب المروءة إلغاءه وإطراحه يعني: أنّ بهم من الجد ما يشغلهم عن الهزل، لما وصفهم بالخشوع في الصلاة أتبعه الوصف بالإعراض عن اللغو ليجمع لهم الفعل، والترك الشاقين على الأنفس اللذين هما قاعدتا بناء التكليف.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ۝٤﴾.

الزكاة اسم مشترك بين عين ومعنى، فالعين القدر الذي يخرجه المزكى من النصاب إلى الفقير، والمعنى فعل المزكى الذي هو التزكية وهو الذي أراده الله فجعل المزكين فاعلين له، ولا يسوغ فيه غيره؛ لأنه ما من مصدر إلا يعبر عن معناه بالفعل ويقال: لمحدثه فاعل تقول: للضارب فاعل الضرب، وللقاتل فاعل القتل وللمزكى فاعل التزكية، وعلى هذا الكلام كله والتحقيق فيه أنك تقول: في جميع الحوادث من فاعل هذا، فيقال: لك فاعله الله أو بعض الخلق[5] ولم يمتنع الزكاة الدالة على العين أن يتعلق بها فاعلون لخروجها من صحة أن يتناولها الفاعل، ولكن لأنّ الخلق ليسوا بفاعليها وقد أنشد لأمية ابن أبي الصلت:

المطعمون الطعام في السنة الأ   زمة والفاعلون للزكوات

ويجوز أن يراد بالزكاة العين ويقدّر مضاف محذوف وهو الأداء، وحمل البيت على هذا أصحّ لأنها فيه مجموعة.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦﴾.

---

(1) الثعلبي وابن مردويه والواحدي في الوسيط زيلعي... 2/396.

(2) قال أحمد: والأوّل مذهب الأشعرية، والثاني مذهب المعتزلة، والموحد الفاسق عندهم لا مؤمن ولا كافر، ولو لم يبن المعتزلة على هذا المعتقد تحريم الجنة على الموحد الفاسق بناء على أنه لا يندرج في وعد المؤمنين، لكان البحث معهم لفظياً، ولكن رتبوا على ذلك أمراً عظيماً من أصول الدين وقواعده، وقد نقل القاضي عنهم في رسالة الإيمان خبطاً طويلاً، فنقل عن قدمائهم كعمرو بن عبيد وطبقته: أن الإيمان هو التصديق بالقلب، وجميع فرائض الدين فعلاً وتركاً، ونقل عن أبي الهذيل العلاف: أنّ الإيمان هو جميع فرائض الدين ونوافله، ومختصر دليل القاضي لأهل السنة أنّ الإيمان لغة هو مجرّد التصديق اتفاقاً، فوجب أن يكون كذلك= شرعاً عملاً بقوله تعالى: ﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه﴾ مع سلامته عن معارضة النقل، فإنه لو كان لنبيه عليه الصلاة والسلام ولو بينه لنقل؛ لأنه مما يبتني عليه قاعدة الوعد والوعيد، ولم ينقل لأنّ النقل إما آحاد، أو تواتر إلى آخر مادته.

(3) أخرجه أبو داود في المراسيل، باب: في القراءة، (الحديث: 45).

(4) الترمذي في نوادر الأصول.

(5) قال أحمد: ويقول السني: فاعل جميعها هو الله وحده لا شريك له، ولكن إذا سئل بصيغة مشتقة من الفعل على طريقة اسم الفاعل، مثل أن يقال له: من القائم من القاعد، أجاب بمن خلق الله الفعل على يديه، وجعله محلاً له كزيد وعمرو.

﴿على أزواجهم﴾ في موضع الحال أي: الآلين على أزواجهم أو قوّامين عليهنّ من قولك: كان فلان على فلانة فمات عنها فخلف عليها فلان ونظيره كان زياد على البصرة أي: واليًا عليها، ومنه قولهم: فلانة تحت فلان، ومن ثمة سميت المرأة فراشًا والمعنى: أنهم لفروجهم حافظون في كافة الأحوال إلا في حال تزوّجهم أو تسريهم، أو تعلق على بمحذوف يدل عليه غير ملومين كأنه قيل: يلامون إلا على أزواجهم أي: يلامون على كل مباشر إلا على ما أطلق لهم، فإنهم غير ملومين عليه أو تجعله صلة لحافظين من قولك: احفظ عليّ عنان فرسي على تضمينه معنى النفي كما ضمن قولهم: نشدتك بالله إلا فعلت معنى ما طلبت منك إلا فعلك.

فإن قُلْتَ: هلا قيل من ملكت! **قُلْتُ:** لأنه أريد من جنس العقلاء ما يجري مجرى غير العقلاء وهم الإناث.

فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾.

جعل المستثنى حدًا أوجب الوقوف عنده ثم قال: فمن أحدث ابتغاء وراء هذا الحدّ مع فسحته، واتساعه وهو إباحة أربع من الحرائر ومن الإماء ما شئت ﴿فأولئك هم﴾ الكاملون في العدوان المتناهون فيه.

فإن قُلْتَ: هل فيه دليل على تحريم المتعة؟ **قُلْتُ:** لا لأنّ المنكوحة نكاح المتعة من جملة الأزواج إذا صحّ النكاح.

وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾.

وقرئ ﴿لأمانتهم﴾ سمى الشيء المؤتمن عليه والمعاهد عليه أمانة وعهدًا ومنه قوله تعالى: ﴿إنّ الله يأمركم أن تؤدّوا الأمانات إلى أهلها﴾[1] وقال: وتخونوا أماناتكم وإنما تؤدّي العيون لا المعاني، ويخان المؤتمن عليه لا الأمانة في نفسها، والراعي القائم على الشيء بحفظ وإصلاح كراعي الغنم وراعي الرعية، ويقال: من راعي هذا الشيء أي: متوليه وصاحبه ويحتمل العموم في كل ما ائتمنوا عليه وعوهدوا من جهة الله تعالى ومن جهة الخلق والخصوص فيما حملوه من أمانات الناس وعهودهم.

وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾.

وقرئ ﴿على صلاتهم﴾.

فإن قُلْتَ: كيف كرّر ذكر الصلاة أوّلاً وآخرًا؟ **قُلْتُ:** هما ذكران مختلفان فليس بتكرير، وصفوا أوّلاً بالخشوع في صلاتهم وآخرًا بالمحافظة عليها وذلك أن لا يسهوا عنها ويؤدّوها في أوقاتها ويقيموا أركانها ويوكلوا نفوسهم بالاهتمام بها وبما ينبغي أن تتمّ به أوصافها وأيضًا، فقد وحدت أوّلاً ليفاد الخشوع في جنس الصلاة أي: صلاة كانت وجمعت آخرًا لتفاد المحافظة على أعدادها، وهي الصلوات الخمس والوتر والسنن المرتبة مع كل صلاة وصلاة الجمعة والعيدين والجنازة والاستسقاء والكسوف والخسوف وصلاة الضحى والتهجد وصلاة التسبيح وصلاة الحاجة وغيرها من النوافل.

أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾.

أي: ﴿أولئك﴾ الجامعون لهذه الأوصاف ﴿هم الوارثون﴾ الأحقاء بأن يسموا ورّاثًا دون من عداهم ثم يرحم الوارثين بقوله:

ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾.

بقوله: ﴿الذين يرثون الفردوس﴾، فجاء بفخامة وجزالة لإرثهم لا تخفى على الناظر ومعنى الإرث: ما مرّ في سورة مريم، أنث الفردوس على تأويل الجنة وهو البستان الواسع الجامع لأصناف الثمر روي أنّ الله عزّ وجلّ بنى جنة الفردوس لبنة من ذهب ولبنة من فضة، وجعل خلالها المسك الأنفر وفي رواية ولبنة من مسك مذرى وغرس فيها من جيد الفاكهة وجيد الريحان.

وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾.

السلالة الخلاصة لأنها تسلّ من بين الكدر وفعالة بناء للقلة كالقلامة والقمامة وعن الحسن ماء بين ظهراني الطين.

فإن قُلْتَ: ما الفرق بين من ومن؟ **قُلْتُ:** الأوّل للابتداء والثاني للبيان كقوله من الأوثان.

ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾.

فإن قُلْتَ: ما معنى ﴿جعلنا﴾ الإنسان ﴿نطفة﴾؟ **قُلْتُ:** معناه أنه خلق جوهر الإنسان أوّلاً طينًا، ثم جعل جوهره بعد ذلك نطفة، القرار المستقرّ والمراد الرحم وصفت بالمكانة التي هي صفة المستقرّ فيها كقولك: طريق سائر أو بمكانتها في نفسها لأنها مكنت بحيث هي وأحرزت.

ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾.

قرئ عظمًا فكسونا العظم وعظامًا فكسونا العظام وعظمًا فكسونا العظام وعظامًا، فكسونا العظم وضع الواحد مكان الجمع لزوال اللبس لأنّ الإنسان نو عظام كثيرة، ﴿خلقًا آخر﴾ أي: خلقًا مباينًا للخلق الأوّل مباينة ما أبعدها حيث جعله حيوانًا وكان جمادًا وناطقًا، وكان أبكم وسميعًا وكان أصم وبصيرًا وكان أكمه وأودع باطنه وظاهره بل كل عضو من أعضائه، وكل جزء من أجزائه عجائب فطرة وغرائب حكمة لا تدرك بوصف الواصف ولا تبلغ بشرح الشارح، وقد احتجّ به أبو حنيفة فيمن غصب بيضة فأفرخت عنده قال: يضمن البيضة ولا يرد الفرخ لأنه خلق آخر سوى البيضة، ﴿فتبارك الله﴾ فتعالى

(1) سورة النساء، الآية: 58.

أمره في قدرته وعلمه ﴿**أحسن الخالقين**﴾ أي: أحسن المقدّرين تقديرًا فترك ذكر المميز لدلالة الخالقين عليه ونحوه طرح المأذون فيه في قوله: ﴿أذن للذين يقاتلون﴾[1] لدلالة الصلة وروي عن عمر رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ لما بلغ قوله: ﴿خلقًا آخر﴾ قال: ﴿فتبارك الله أحسن الخالقين﴾[2] وروي أنّ عبد الله بن سعد بن أبي سرح كان يكتب للنبي ﷺ، فنطق بذلك قبل إملائه فقال له النبي ﷺ: اكتب هكذا نزلت فقال: عبد الله إن كان محمد نبيًا يوحى إليه فأنا نبيّ يوحى إليّ فلحق بمكة كافرًا ثم أسلم يوم الفتح[3].

ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾.

قرأ ابن أبي عبلة وابن محيصن لمائتون والفرق بين الميت والمائت أنّ الميت كالحي صفة ثابتة، وأمّا المائت فيدل على الحدوث تقول: زيد مائت الآن ومائت غدًا كقولك: يموت ونحوهما ضيق وضائق في قوله تعالى: ﴿وضائق به صدرك﴾[4] جعل الإماتة التي هي إعدام الحياة.

ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾.

والبعث الذي هو إعادة ما يفنيه ويعدمه دليلين أيضًا على اقتدار عظيم بعد الإنشاء والاختراع.

فإن قُلْتَ: فإذًا لا حياة إلا حياة الإنشاء وحياة البعث! **قُلْتُ:** ليس في نكر الحياتين نفي الثالثة وهي حياة القبر كما لو نكرت ثلثي ما عندك، وطويت نكر ثلثه لم يكن دليلاً على أن الثلث ليس عندك وأيضًا فالغرض نكر هذه الأجناس الثلاثة الإنشاء والإماتة والإعادة والمطوى نكرها من جنس الإعادة.

وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴿١٧﴾.

الطرائق السمٰوات لأنه طورق بعضها فوق بعض كمطارقة النعل، وكل شيء فوقه مثله فهو طريقة أو لأنها طرق الملائكة ومتقلباتهم. وقيل: الأفلاك لأنها طرائق الكواكب فيها مسيرها، أراد بالخلق السمٰوات كأنه قال: خلقناها فوقهم ﴿**وما كنا**﴾ عنها ﴿**غافلين**﴾ وعن حفظها وإمساكها أن تقع فوقهم بقدرتنا، أو أراد به الناس وأنه إنما خلقها فوقهم ليفتح عليهم الأرزاق والبركات منها وينفعهم بأنواع منافعها، وما كان غافلاً عنهم وما يصلحهم.

وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾.

﴿**بقدر**﴾ بتقدير يسلمون معه من المضرة ويصلون إلى المنفعة أو بمقدار ما علمناه من حاجاتهم ومصالحهم، ﴿**فاسكناه في الأرض**﴾ كقوله ﴿فسلكه ينابيع في الأرض﴾[5] وقيل: جعلناه ثابتًا في الأرض وقيل: إنها خمسة أنهار: سيحون نهر الهند وجيحون نهر بلخ ودجلة والفرات نهرا العراق والنيل نهر مصر، أنزلها الله من عين واحدة من عيون الجنة فاستودعها الجبال وأجراها في الأرض وجعل فيها منافع للناس في أصناف معايشهم، وكما قدر على إنزاله فهو قادر على رفعه وإزالته، وقوله: ﴿**على ذهاب به**﴾ من أوقع النكرات وأحرها للمفصل والمعنى على وجه من وجوه الذهاب به وطريق من طرقه وفيه إيذان باقتدار المذهب وأنه لا يتعايا عليه شيء إذا أراده وهو أبلغ في الإيعاد من قوله: ﴿قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورًا فمن يأتيكم بماء معين﴾[6] فعلى العباد أن يستعظموا النعمة في الماء ويقيدوها بالشكر الدائم ويخافوا نفارها إذا لم تشكر.

فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾.

خصّ هذه الأنواع الثلاثة لأنها أكرم الشجر وأفضلها وأجمعها للمنافع ووصف النخل والعنب بأنّ ثمرهما جامع بين أمرين بأنه فاكهة يتفكه بها وطعام يؤكل رطبًا، ويابسًا رطبًا وعنبًا وتمرًا وزبيبًا والزيتون بأنّ دهنه صالح للاستصباح، والاصطباغ جميعًا ويجوز أن يكون قوله: ﴿ومنها تأكلون﴾[7] من قولهم: يأكل فلان من حرفة يحترفها ومن ضيعة يغتلها ومن تجارة يتربح بها يعنون أنها طعمته وجهته التي منها يحصل رزقه كأنه قال: وهذه الجنات وجوه أرزاقكم ومعايشكم منها ترتزقون وتتعيشون.

وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ﴿٢٠﴾.

﴿**وشجرة**﴾ عطف على جنات وقرئت مرفوعة على الابتداء أي: ومما أنشئ لكم شجرة ﴿**طور سيناء**﴾ وطور سينين، لا يخلو إما أن يضاف فيه الطور إلى بقعة اسمها سيناء وسينون وإمّا أن يكون اسمًا للجبل مركبًا من مضاف ومضاف إليه كامرئ القيس، وكبعلبك فيمن أضاف فمن كسر سين سيناء فقد منع الصرف للتعريف والعجمة، أو التانيث لانها بقعة وفعلاء لا يكون ألفه للتانيث كعبلباء وحرباء ومن فتح فلم يصرف لأنّ الألف للتانيث كصحراء، وقيل: هو جبل فلسطين وقيل: بين مصر وأيلة ومنه نودي موسى عليه السلام وقرأ الأعمش سينا على القصر ﴿**بالدهن**﴾ في موضع الحال أي: تنبت وفيها الدهن وقرئ تنبت وفيه وجهان أحدهما أن أنبت بمعنى نبت وأنشد لزهير رأيت نوي الحاجات حول بيوتهم، قطينًا لهم حتى

---

(1) سورة الحج، الآية: 39.

(2) الواحدي في أسباب النزول، ص: 176.

(3) قال الزيلعي غريب وقد ذكره الواحدي في أسباب النزول 2/401. ولم أقف عليه عند الواحدي.

(4) سورة هود، الآية: 12.

(5) سورة الزمر، الآية: 21.

(6) سورة الملك، الآية: 30.

(7) سورة النحل، الآية: 5.

إذا أنبت البقل والثاني أنّ مفعوله محذوف، أي: تنبت زيتونها وفيه الزيت، وقرئ تنبت بضم التاء وفتح الباء وحكمه حكم تنبت، وقرأ ابن مسعود تخرج الدهن وصبغ الآكلين وغيره تخرج بالدهن وفي حرف أبي تثمر بالدهن وعن بعضهم تنبت بالدهان، وقرأ الأعمش وصبغًا وقرئ وصباغ ونحوهما دبغ ودباغ والصبغ الغمس للائتدام وقيل: هي أوّل شجرة نبتت بعد الطّوفان، ووصفها الله تعالى بالبركة في قوله: توقد من شجرة مباركة.

وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾.

قرئ ﴿تسقيكم﴾ بتاء مفتوحة أي: تسقيكم الأنعام ﴿ومنها تأكلون﴾ أي: تتعلق بها منافع من الركوب والحمل وغير ذلك كما تتعلق بما لا يؤكل لحمه من الخيل والبغال والحمير وفيها منفعة زائدة وهي الأكل الذي هو انتفاع بذواتها.

وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾.

والقصد بالأنعام إلى الإبل لأنها هي المحمول عليها في العادة وقرنها بالفلك، التي هي السفائن لأنها سفائن البر قال: ذو الرمة، سفينة برّ تحت خدي زمامها.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾.

يريد صيحه ﴿غيره﴾ بالرفع على المحل وبالجر على اللفظ، والجملة استئناف تجري مجرى التعليل للأمر بالعبادة ﴿أفلا تتقون﴾ أفلا تخافون أن ترفضوا عبادة الله الذي هو ربكم وخالقكم ورازقكم وشكر نعمته التي لا تحصونها، واجب عليكم، ثم تذهبوا فتعبدوا غيره مما ليس من استحقاق العبادة في شيء.

فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾.

﴿أن يتفضل عليكم﴾ أن يطلب الفضل عليكم ويرأسكم كقوله تعالى: ﴿وتكون لكما الكبرياء في الأرض﴾[1] ﴿بهذا﴾ إشارة إلى نوح عليه السلام أو إلى ما كلمهم به من الحث على عبادة الله أي: ما سمعنا بمثل هذا الكلام أو بمثل هذا الذي يدعى وهو بشر أنه رسول الله، وما أعجب شأن الضلال لم يرضوا للنبوة ببشر وقد رضوا للإلهية بحجر وقولهم: ﴿ما سمعنا بهذا﴾ يدل على أنهم وآباؤهم كانوا في فترة متطاولة أو تكذبوا في ذلك لأنهماكهم في الغي وتشمرهم لأن يدفعوا الحق بما أمكنهم، وبما عنّ لهم من غير تمييز منهم بين صدق وكذب ألا تراهم كيف جننوه وقد علموا أنه أرجح الناس عقلاً وأوزنهم قولاً.

إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾.

والجِنَّة الجنون أو الجن أي: به جن يخبلونه ﴿حتى حين﴾ أي: احتملوه واصبروا عليه إلى زمان حتى ينجلي أمره عن عاقبة فإن أفاق من جنونه وإلا قتلتموه.

قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾.

في نصرته إهلاكهم فكأنه قال: أهلكهم بسبب تكذيبهم إياي أو انصرني بدل ما كذبوني كما تقول: هذا بذاك أي: بدل ذاك ومكانه، والمعنى: أبدلني من غم تكذيبهم سلوة النصرة عليهم، أو انصرني بإنجاز ما وعدتهم من العذاب، وهو ما كذبوه فيه حين قال لهم: إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم.

فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾.

﴿باعيننا﴾ بحفظنا وكلاءتنا كان معه من الله حفاظًا يكلؤنه بعيونهم لئلا يتعرض له، ولا يفسد عليه مفسد عمله ومنه قولهم: عليه من الله عين كالئة ﴿ووحينا﴾ أي: نأمرك كيف تصنع، ونعلمك. روي أنه أوحى إليه أن يصنعها على مثال جؤجؤ الطائر، روي أنه قيل: لنوح عليه السلام إذا رأيت الماء يفور من التنور فاركب أنت ومن معك في السفينة، فلما نبع الماء من التنور أخبرته امرأته فركب وقيل: كان تنور آدم عليه السلام وكان من حجارة فصار إلى نوح، واختلف في مكانه. فعن الشعبي في مسجد الكوفة عن يمين الداخل مما يلي باب كندة وكان نوح عمل السفينة وسط المسجد، وقيل: بالشام بموضع يقال له: عين وردة، وقيل: بالهند. وعن ابن عباس رضي الله عنه التنور وجه الأرض، وعن قتادة أشرف موضع في الأرض أي: أعلاه. وعن علي رضي الله عنه فار التنور طلع الفجر وقيل: معناه أن فوران التنور كان عند تنوير الفجر، وقيل: هو مثل كقولهم: حمى الوطيس والفول: هو الأوّل، يقال: سلك فيه دخله وسلك غيره وأسلكه قال: حتى إذا سلكوهم في قتائدة ﴿من كل زوجين﴾ من كل أمّتي زوجين وهما أمّة الذكر وأمّة الأنثى كالجمال والنوق والحصن والرماك، ﴿اثنين﴾ واحدين مزدوجين كالجمل والناقة والحصان والرمكة روي أنه لم يحمل إلا ما يلد ويبيض، وقرئ من كل بالتنوين أي: من كل أمّة زوجين واثنين تأكيد وزيادة بيان.

فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾.

جيء بعلى مع سبق الضار كما جيء باللام مع سبق

(1) سورة يونس، الآية: 78.

النافع قال الله تعالى: ﴿إن الذين سبقت لهم منا الحسنى﴾[1] ﴿ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين﴾[2] ونحوه قوله تعالى: ﴿لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت﴾[3] وقول: عمر رضي الله عنه ليتها كانت كفافًا لا عليّ ولا لي.

فإن قُلْتَ: لم نهاه عن الدعاء لهم بالنجاة! **قُلْتُ:** لما تضمنته الآية من كونهم ظالمين وإيجاب الحكمة أن يغرقوا إلا محالة لما عرف من المصلحة في إغراقهم، والمفسدة في استبقائهم وبعد أن أملى لهم الدهر المتطاول، فلم يزيدوا إلا ضلالاً ولزمتهم الحجة البالغة لم يبق إلا أن يجعلوا عبرة للمعتبرين، ولقد بالغ في ذلك حيث أتبع النهي عنه الأمر بالحمد على هلاكهم والنجاة منهم كقوله: ﴿فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين﴾[4].

وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾.

ثم أمره أن يدعوه بدعاء هو أهم وأنفع له وهو طلب أن ينزله في السفينة، أو في الأرض عند خروجه منها ﴿منزلاً﴾ يبارك له فيه ويعطيه الزيادة في خير الدارين، وأن يشفع الدعاء بالثناء عليه المطابق لمسئلته وهو قوله: **﴿وأنت خير المنزلين﴾**

فإن قُلْتَ: هلا قيل: فقولوا لقوله: ﴿فإذا استويت أنت ومن معك﴾[5] لأنه في معنى: فإذا استويتم! **قُلْتُ:** لأنّه نبيهم وإمامهم فكان قوله قولهم: مع ما فيه من الإشعار بفضل النبوّة وإظهار كبرياء الربوبية وأن رتبة تلك المخاطبة لا يترقى إليها إلا ملك أو نبي، وقرئ: ﴿منزلاً﴾ بمعنى: إنزالاً أو موضع إنزال كقوله: ﴿ليدخلنهم مدخلاً يرضونه﴾[6].

إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾

﴿إن﴾ هي المخففة من الثقيلة واللام هي الفارقة بين النافية وبينها في المعنى. وإن الشان والقصة **﴿كنا لمبتلين﴾** أي: مصيبين قوم نوح ببلاء عظيم وعقاب شديد. ومختبرين بهذه الآيات عبادنا لننظر من يعتبر ويدّكر كقوله تعالى: ﴿ولقد تركناها آية فهل من مدكر﴾[7].

ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٣١﴾.

﴿قرنًا آخرين﴾ هم عاد قوم هود عن ابن عباس رضي الله عنهما وتشهد له حكاية الله تعالى قول هود: ﴿واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح﴾[8] ومجيء قصة هود على أثر قصة نوح في سورة الأعراف وسورة هود والشعراء.

فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾.

فإن قُلْتَ: حق أرسل أن يعدى بإلى كأخواته التي هي وجه وانفذ وبعث فما باله عدي في القرآن بإلى تارة وبفي أخرى كقوله: ﴿كذلك أرسلناك في أمّة﴾[9] ﴿وما أرسلنا في قرية من نذير﴾[10].

﴿فأرسلنا فيهم رسولاً﴾ أي: في عاد وفي موضع آخر وإلى عاد أخاهم هوداً **قُلْتُ:** لم يعد بفي كما عدى بإلي ولم يجعل صلةً مثله، ولكن الأمّة أو القرية جعلت موضعاً للإرسال كما قال رؤبة: أرسلت فيها مصعبًا ذا إقحام وقد جاء بعث على ذلك في قوله: ﴿ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيرًا﴾[11] **﴿أن﴾** مفسرة لأرسلنا أي: قلنا لهم: على لسان الرسول **﴿اعبدوا الله﴾.**

فإن قُلْتَ: نكر مقال قوم هود في جوابه في سورة الأعراف وسورة هود بغير واو.

وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾.

قال: ﴿الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك في سفاهة﴾[12] ﴿قالوا: يا هود ما جئتنا ببينة﴾[13] وههنا مع الواو فأي: فرق بينهما؟ **قُلْتُ:** الذي بغير واو على تقدير سؤال سائل قال: فما قال: قومه فقيل له: كيت وكيت وأمّا الذي مع الواو فعطف لما قالوه على ما قاله: ومعناه أنه اجتمع في الحصول هذا الحق، وهذا الباطل وشتان ما هما **﴿بلقاء الآخرة﴾** بلقاء ما فيها من الحساب والثواب والعقاب كقولك: يا حبذا جوار مكة أي: جوار الله في مكة. حذف الضمير والمعنى، من مشروبكم أو حذف منه لدلالة ما قبله عليه.

وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿٣٤﴾.

﴿إذا﴾ واقع في جزاء الشرط وجواب للذين قالوهم من قومهم أي: تخسرون عقولكم وتغبنون في آرائكم.

أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾.

ثنى **﴿أنكم﴾** للتوكيد وحسن ذلك لفصل ما بين الأوّل والثاني بالظرف و**﴿مخرجون﴾** خبر عن الأوّل أو جعل **﴿أنكم مخرجون﴾** مبتدأ وإذا متم خبرًا على معنى إخراجكم إذا متم، ثم أخبر بالجملة عن **﴿أيكم﴾**، أو رفع

---

(1) سورة الأنبياء، الآية: 101.
(2) سورة الصافات، الآية: 171.
(3) سورة البقرة، الآية: 286.
(4) سورة الأنعام، الآية: 45.
(5) سورة المؤمنون، الآية: 28.
(6) سورة الحج، الآية: 59.
(7) سورة القمر، الآية: 15.
(8) سورة الأعراف، الآية: 69.
(9) سورة الرعد، الآية: 30.
(10) سورة سبأ، الآية: 34.
(11) سورة الفرقان، الآية: 51.
(12) سورة الأعراف، الآية: 66.
(13) سورة هود، الآية: 53.

﴿لنكم مخرجون﴾ بفعل هو جزاء للشرط كأنه قيل: إذا متم وقع إخراجكم ثم أوقعت الجملة الشرطية خبرًا عن ﴿إنكم﴾، وفي قراءة ابن مسعود أيعدكم إذا متم.

﴿ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾.

قرئ: ﴿هيهات﴾ بالفتح والكسر والضم كلها بتنوين وبلا تنوين وبالسكون على لفظ الوقف.

فإن قُلْتَ: ما ﴿توعدون﴾ هو المستبعد ومن حقه أن يرتفع بهيهات كما ارتفع في قوله: فـ﴿هيهات هيهات﴾ العقيق وأهله فما هذه اللام؟ **قُلْتُ:** قال: الزجاج في تفسير البعد ﴿لما توعدون﴾، أو بعد ﴿لما توعدون﴾ فيمن نون فنزله منزلة المصدر وفيه وجه آخر، وهو أن يكون اللام لبيان المستبعد ما هو بعد التصويت بكلمة الاستبعاد كما جاءت اللام في ﴿هيت لك﴾[1] لبيان المهيت به هذا ضمير لا يعلم ما يعني به إلا بما يتلوه من بيانه وأصله إن الحياة.

إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾.

﴿إلا حياتنا الدنيا﴾، ثم وضع هي موضع الحياة لأنّ الخبر يدل عليها ويبيّنها ومنه هي النفس تتحمل ما حملت وهي العرب، تقول: ما شاءت والمعنى: لا حياة إلا هذه الحياة لأن ﴿إن﴾ النافية دخلت على ﴿هي﴾ التي في معنى الحياة الدالة على الجنس فنفتها فوازنت لا التي نفت ما بعدها نفي الجنس، ﴿نموت ونحيا﴾ أي: يموت بعض ويولد بعض ينقرض قرن ويأتي قرن آخر.

إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾.

ثم قالوا: ما هود إلاّ مفتر على الله فيما يدعيه من استنبائه له، وفيما يعدنا من البعث وما نحن بمصدقين.

قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴿٤٠﴾.

﴿قليل﴾ صفة للزمان كقديم وحديث في قولك: ما رأيته قديمًا ولا حديثًا وفي معناه عن قريب وما توكيد قلة المدّة وقصرها.

فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾.

﴿الصيحة﴾ صيحة جبريل عليه السلام صاح عليهم فدمرهم ﴿بالحق﴾ بالوجوب لأنهم قد استوجبوا الهلاك، أو بالعدل من الله من قولك: فلان يقضي بالحق إذا كان عادلاً في قضاياه شبّههم في دمارهم بالغثاء، وهو حميل السيل مما يلي واسودّ من العيدان والورق ومنه قوله تعالى: ﴿فجعله غثاء أحوى﴾[2] وقد جاء مشدداً في قول امرئ القيس:

من السيل والغثاء فلكة مغزل

بعدًا وسحقًا ودفرًا ونحوها مصادر موضوعة مواضع أفعالها، وهي من جملة المصادر التي قال سيبويه: نصبت بأفعال لا يستعمل إظهارها ومعنى: بعدًا، بعدوا، أي: هلكوا يقال: بعد بعدًا وبعدًا نحو رشد رشدًا ورشدًا و ﴿للقوم الظالمين﴾ بيان لمن دعى عليه بالبعد نحو هيت لك ولما توعدون.

ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ ﴿٤٢﴾.

﴿قرونًا﴾ قوم صالح ولوط وشعيب وغيرهم، وعن ابن عباس رضي الله عنهما بني إسرائيل.

مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴿٤٣﴾.

﴿أجلها﴾ الوقت الذي حدّ لهلاكها وكتب.

ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾.

﴿تترى﴾ فعلى الألف للتأنيث لأنّ الرسل جماعة، وقرئ: تترى بالتنوين والتاء بدل من الواو كما في تولج وتيقور أي: متواترين واحدًا بعد واحد من الوتر وهو الفرد أضاف الرسل إليه تعالى وإلى أممهم، ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات ولقد جاءتهم رسلهم بالبيّنات لأنّ الإضافة تكون بالملابسة والرسول ملابس المرسل والمرسل إليه جميعاً ﴿فاتبعنا﴾ الأمم أو القرون ﴿بعضهم بعضًا﴾ في الإهلاك ﴿وجعلناهم﴾ أخبارًا يسمر بها ويتعجب منها الأحاديث تكون اسم جمع للحديث، ومنه أحاديث رسول الله ﷺ وتكون جمعًا للأحدوثة التي هي مثل الأضحوكة والألعوبة والأعجوبة، وهي مما يتحدّث به الناس تلهيًا وتعجبًا وهو المراد ههنا.

ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٤٥﴾.

فإن قُلْتَ: ما المراد بالسلطان المبين! **قُلْتُ:** يجوز أن تراد العصا؛ لأنها كانت أمّ آيات موسى وأولاها، وقد تعلقت بها معجزات شتى من انقلابها حية وتلقفها ما أفكته السحرة وانفلاق البحر وانفجار العيون من الحجر بضربهما بها، وكونها حارسًا وشمعة وشجرة خضراء مثمرة وملوًا ورشاء جعلت كأنها ليست بعضها لما استبدت به من الفضل، فلذلك عطفت عليها كقوله تعالى: ﴿وجبريل وميكال﴾[3] ويجوز أن تراد الآيات أنفسها أي: هي آيات وحجة بيّنة.

إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾.

﴿عالين﴾ متكبرين ﴿إنّ فرعون علا في الأرض﴾[4]

(1) سورة يوسف، الآية: 23.
(2) سورة الأعلى، الآية: 5.
(3) سورة البقرة، الآية: 98.
(4) سورة القصص، الآية: 4.

﴿لا يريدون علوًا في الأرض﴾[1] أو متطاولين على الناس قاهرين بالبغي والظلم.

فَقَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لِبَشَرَيۡنِ مِثۡلِنَا وَقَوۡمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡلَكِينَ ﴿٤٨﴾.

البشر يكون واحدًا وجمعًا. ﴿بشرًا سويًا﴾. لبشرين ﴿فإما ترين من البشر﴾. ومثل وغير بوصف بهما الاثنان والجمع والمذكر والمؤنث ﴿إنكم إذاً مثلهم﴾. ومن الأرض مثلهنّ. ويقال: أيضًا هما مثلاه وهم أمثاله، ﴿إنّ الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم﴾ ﴿وقومهما﴾ يعني: بني إسرائيل كانهم يعبدوننا خضوعًا وتذللاً أو لأنه كان يدعي الإلهية فادعى للناس العبادة وأن طاعتهم له عبادة على الحقيقة.

وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴿٤٩﴾.

﴿موسى الكتاب﴾ أي: قوم موسى التوراة ﴿لعلهم﴾ يعملون بشرائعها ومواعظها كما قال: على خوف من فرعون وملئهم يريد آل فرعون وكما يقولون: هاشم وثقيف وتميم ويراد قومهم، ولا يجوز أن يرجع الضمير في لعلهم إلى فرعون وملئه لأنّ التوراة إنما أوتيها بنو إسرائيل بعد إغراق فرعون وملئه ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى﴾[2].

فإن قُلْتَ: لو قيل: آيتين هل كان يكون له وجه؟ **قُلْتُ**: نعم لأنّ مريم ولدت من غير مسيس وعيسى روح من الله ألقى إليها، وقد تكلم في المهد وكان يحيي الموتى مع معجزات أُخر فكان آية من غير وجه واللفظ محتمل للتثنية على تقدير.

وَجَعَلۡنَا ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةٗ وَءَاوَيۡنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبۡوَةٖ ذَاتِ قَرَارٖ وَمَعِينٖ ﴿٥٠﴾.

﴿وجعلنا ابن مريم﴾ آية ﴿وأمّه﴾ ثم حنفت الأولى لدلالة الثانية عليها، الربوة والرباوة في رائهما الحركات، وقرئ: ربوة ورباوة بالضم ورباوة بالكسر وهي الأرض المرتفعة قيل: هي إيليا أرض بيت المقدس وأنها كبد الأرض، وأقرب الأرض إلى السماء بثمانية عشر ميلاً عن كعب وقيل: دمشق وغوطتها وعن الحسن فلسطين والرملة وعن أبي هريرة الزموا هذه الرملة رملة فلسطين، فإنها الربوة التي ذكرها الله وقيل: مصر. والقرار المستقرّ من أرض مستوية منبسطة، وعن قتادة ذات ثمار وماء يعني: أنه لأجل الثمار يستقرّ فيها ساكنوها، والمعين الماء الظاهر الجاري على وجه الأرض وقد اختلف في زيادة ميمه وأصالته فوجه من جعله مفعولاً أنه مدرك بالعين لظهوره من عانه إذا أدركه بعينه نحو ركبه إذا ضربه بركبته، ووجه من جعله فعيلاً أنه نفاع بظهوره وجريه من الماعون وهو المنفعة.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ﴿٥١﴾.

هذا النداء والخطاب ليسا على ظاهرهما وكيف والرسل إنما أرسلوا متفرّقين في أزمنة مختلفة، وإنما المعنى: الإعلام بأنّ كلّ رسول في زمانه نودي لذلك[3] ووصي به ليعتقد السامع أنّ أمراً نودي له جميع الرسل ووصوا به حقيق أن يؤخذ به ويعمل عليه، والمراد بالطيبات ما حلّ وطاب وقيل: طيبات الرزق حلال وصاف وقوام فالحلال الذي لا يعصي الله فيه والصافي الذي لا ينسى الله فيه والقوام ما يمسك النفس، ويحفظ العقل أو أريد ما يستطاب ويستلذ من المآكل والفواكه ويشهد له مجيئه على عقب قوله: ﴿وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين﴾[4] ويجوز أن يقع هذا الإعلام عند إيواء عيسى ومريم إلى الربوة فنكر على سبيل الحكاية أي: آريناهما وقلنا: لهما هذا أي: أعلمناهما أنّ الرسل كلهم خوطبوا بهذا فكلا مما رزقناكما واعملا صالحًا اقتداء بالرسل.

وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾.

قرئ ﴿وإنّ﴾ بالكسر على الاستئناف وأنّ بمعنى: ولأنّ وأن مخففة من الثقيلة و ﴿أمتكم﴾ مرفوعة معها.

فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾.

وقرئ: ﴿زبرًا﴾ جمع زبور أي: كتباً مختلفة يعني: جعلوا دينهم أديانًا وزبرًا قطعًا استعيرت من زبر الفضة والحديد، وزبرًا مخففة الباء كرسل في رسل أي: كلّ فرقة من فرق هؤلاء المختلفين المتقطعين دينهم فرح بباطله مطمئنّ النفس معتقد أنّه على الحق.

فَذَرۡهُمۡ فِي غَمۡرَتِهِمۡ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾.

الغمرة الماء الذي يغمر القامة فضربت مثلاً لما هم مغمورون فيه من جلهم وعمايتهم، أو شبّهوا باللاعبين في غمرة الماء لما هم عليه من الباطل قال: كانني ضارب في غمرة لعب وعن علي رضي الله عنه في غمراتهم.

---

(1) سورة القصص، الآية: 83.

(2) سورة القصص، الآية: 43.

(3) قال أحمد: هذه نفحة اعتزالية، فإنّ مذهب أهل السنة: أنّ الله تعالى متكلم آمر ناه أزلاً، ولا يشترط في تحقق الامر وجود المخاطب، فعلى هذا قوله: ﴿كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً﴾ على ظاهره وحقيقته عند أهل الحق، هو ثابت أزلاً على تقدير وجود المخاطبين فيما لا يزال متفرّقين، كما في هذا الخطاب أو = مجتمعين كما في زعمه، والمعتزلة لما أبت اعتقاد قدم الكلام زلت بهم القدم، حتى حملوا هذه الآية وامثالها على المجاز وخلاف الظاهر، وما بال الزمخشري خصّ هذه الآية بانها على خلاف الظاهر، ومعتقده يوجب حمل مثل قوله تعالى: ﴿اقيموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾ وجميع الاوامر العامّة في الامة على خلاف الظاهر.

(4) سورة المؤمنون، الآية: 50.

﴿حتى حين﴾ إلى أن يقتلوا، أو يموتوا على رسول الله ﷺ بذلك ونهى عن الاستعجال بعذابهم والجزع من تأخيره.

أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾.

وقرئ: ﴿يمدّهم﴾ ويسارع ويسرع بالياء والفاعل الله سبحانه وتعالى.

نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾.

ويجوز في يسارع ويسرع أن يتضمن ضمير الممدّ به ويسارع مبنيًا للمفعول، والمعنى: أنّ هذا الإمداد ليس إلا استدراجًا لهم إلى المعاصي واستجرارًا إلى زيادة الإثم وهم يحسبونه مسارعة لهم في الخيرات، وفيما لهم فيه نفع وإكرام ومعاجلة بالثواب قبل وقته، ويجوز أن يراد في جزاء الخيرات كما يفعل بأهل الخير من المسلمين، و ﴿بل﴾ استدراك لقوله: ﴿أيحسبون﴾[1] يعني: بل هم أشباه البهائم لا فطنة بهم ولا شعور حتى يتأمّلوا ويتفكروا في ذلك أهو استدراج، أم مسارعة في الخير.

فإن قُلْتَ: أين الراجع من خبر أنّ إلى اسمها إذا لم يستكنّ فيه ضميره؟ **قُلْتُ:** هو محذوف تقديره تسارع به ويسارع به ويسارع الله به كقوله: ﴿إنّ ذلك لمن عزم الأمور﴾[2] أي: إنّ ذلك منه وذلك لاستطالة الكلام مع أمن الإلباس.

وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾.

﴿يؤتون ما آتوا﴾ يعطون ما أعطوا وفي قراءة رسول الله ﷺ وعائشة يأتون ما أتوا أي: يفعلون ما فعلوا وعنها أنها قالت: قلت يا رسول الله هو الذي يزني ويسرق ويشرب الخمر وهو على ذلك يخاف الله، قال: لا يا ابنة الصدّيق ولكن هو الذي يصلي ويصوم ويتصدّق وهو على ذلك يخاف الله أن لا يقبل منه[3].

أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾.

﴿يسارعون في الخيرات﴾ يحتمل معنيين أحدهما أن يراد يرغبون في الطاعات أشدّ الرغبة فيبادرونها والثاني أنهم يتعجلون في الدنيا المنافع ووجوه الإكرام كما قال: ﴿فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة﴾[4] ﴿وآتيناه أجره في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين﴾[5] لأنهم إذا سورع بها لهم فقد سارعوا في نيلها وتعجلوها وهذا الوجه أحسن طباقًا للآية المتقدّمة لأنّ فيه إثبات ما نفي عن الكفار للمؤمنين، وقرئ: يسرعون في الخيرات ﴿لها سابقون﴾ أي: فاعلون السبق لأجلها أو سابقون الناس لأجلها، أو إياها سابقون أي: ينالونها قبل الآخرة حيث عجلت لهم في الدنيا، ويجوز أن يكون لها سابقون خبراً بعد خبر ومعنى وهم لها كمعنى قوله: أنت لها أحمد من بين البشر.

وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾.

يعني: أنّ هذا الذي وصف به الصالحين غير خارج من حدّ الوسع والطاقة وكذلك كل ما كلفه عباده، وما عملوه من الأعمال فغير ضائع عنده بل هو مثبت لديه في كتاب يريد اللوح، أو صحيفة الأعمال ناطق بالحق لا يقرؤون منه يوم القيامة إلا ما هو صدق، وعدل لا زيادة فيه ولا نقصان ولا يظلم منهم أحد أو أراد إنّ الله لا يكلف إلا الوسع، فإن لم يبلغ المكلف أن يكون على صفة هؤلاء السابقين بعد أن يستفرغ وسعه ويبذل طاقته، فلا عليه ولدينا كتاب فيه عمل السابق والمقتصد ولا نظلم أحدًا من حقه، ولا نحطه دون درجته.

بَلْ قُلُوبُهُمْ فِى غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾.

بل قلوب الكفرة في غفلة غامرة لها، ﴿من هذا﴾ أي: مما عليه هؤلاء الموصوفون من المؤمنين ﴿ولهم أعمال﴾ متجاوزة متخطية لذلك أي: لما وصف به المؤمنون ﴿هم لها﴾ معتادون، وبها ضارّون لا يفطمون عنها حتى يأخذهم الله بالعذاب.

حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾.

وحتى هذه هي التي يبتدأ بعدها الكلام، والكلام الجملة الشرطية والعذاب قتلهم يوم بدر أو الجوع حين دعا عليهم رسول الله ﷺ، فقال: «اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسني يوسف»[6] فابتلاهم الله بالقحط حتى أكلوا الجيف، والكلاب، والعظام المحترقة والقدّ والأولاد، الجؤار الصراخ باستغاثة قال:

جأر ساعات النيام لربه

لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾.

أي: يقال لهم: حينئذٍ ﴿لا تجاروا﴾ فإنّ الجؤار غير

---

(1) سورة المؤمنون، الآية: 55.

(2) سورة الشورى، الآية: 43.

(3) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة المؤمنون، (الحديث رقم: 3175)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الزهد، باب: التوقي على العمل، (الحديث رقم: 4198)، وأحمد في = المسند 6/205.

(4) سورة آل عمران، الآية: 148.

(5) سورة العنكبوت، الآية: 27.

(6) أخرجه البخاري في كتاب: الأذان، باب: يهوي بالتكبير حين يسجد (الحديث: 804).

نافع لكم ﴿منا لا تنصرون﴾ لا تغاثون، ولا تمنعون منا أو من جهتنا لا يلحقكم نصر ومغوثة قالوا: الضمير في ﴿به﴾ للبيت العتيق أو للحرم كانوا يقولون: لا يظهر علينا أحد لأنا أهل الحرم والذي سوّغ هذا الإضمار شهرتهم بالاستكبار بالبيت، وأنه لم تكن لهم مفخرة إلا أنهم ولاته القائمون به.

قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾.

ويجوز أن يرجع إلى آياتي إلاّ أنّه ذكر لأنها في معنى: كتابي ومعنى استكبارهم بالقرآن: تكذيبهم به استكبارًا.

مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾.

ضمن مستكبرين معنى مكذبين، فعدّى تعديته أو يحدث لكم استماعه استكبارًا وعتوًا، فأنتم مستكبرون بسببه أو تتعلق الباء بسامرًا أي: تسمرون بذكر القرآن، وبالطعن فيه وكانوا يجتمعون حول البيت بالليل يسمرون وكانت عامّة سمرهم ذكر القرآن وتسميته سحرًا وشعرًا وسبّ رسول الله ﷺ، أو يتهجرون والسامر نحو الحاضر في الإطلاق على الجمع، وقرئ سمرًا وسمارًا وتهجرون ونهجرون من أهجر في منطقه إذا أفحش، والهجر بالضم الفحش ومن هجر الذي هو مبالغة في هجر إذا هذي والهجر بالفتح الهذيان.

أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾.

﴿القول﴾ القرآن يقول: أفلم يتدبروه ليعلموا أنه الحق المبين فصدّقوا به بمن جاء به بل ﴿جاءهم ما لم يات آباءهم﴾ فلذلك أنكروه واستبدعوه كقوله: ﴿لتنذر قومًا ما أنذر آباؤهم فهو غافلون﴾[1] أو ليخافوا عند تدبر آياته وأقاصيصه مثل ما نزل بمن قبلهم من المكذبين أم جاءهم من الأمن ما لم يات آباءهم حين خافوا الله، فآمنوا به وبكتبه ورسله وأطاعوه وآباؤهم إسمٰعيل وأعقابه من عدنان وقحطان، وعن النبي ﷺ لا تسبوا مضر ولا ربيعة، فإنهما كانا مسلمين ولا تسبوا قسًا فإنه كان مسلمًا ولا تسبوا الحرث بن كعب ولا أسد بن خزيمة ولا تميم بن مرّ، فإنهم كانوا على الإسلام وما شككتم فيه من شيء فلا تشكوا في أن تبعاً كان مسلماً[2] وروي في أنّ ضبة كان مسلمًا وكان على شرطة سليمان بن داود.

أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾.

﴿أم لم يعرفوا﴾ محمدًا، وصحة نسبه وحلوله في وسطه هاشم وأمانته وصدقه وشهامته وعقله واتسامه بأنه خير فتيان قريش، والخطبة التي خطبها أبو طالب في نكاح خديجة بنت خويلد كفى برغائها منادياً[3]، الجنة الجنون وكانوا يعلمون أنه بريء منها وأنه أرجحهم عقلاً وأثقبهم ذهنًا ولكنه جاءهم بما خالف شهواتهم وأهواءهم، ولم يوافق ما نشؤا عليه وسيط بلحومهم ودمائهم من اتباع الباطل ولم يجدوا له مردًا ولا مدفعًا لأنه الحق الأبلج، والصراط المستقيم فأخلدوا إلى البهت وعولوا على الكذب من النسبة إلى الجنون والسحر والشعر.

أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾.

فإن قُلْتَ: قوله: ﴿وأكثرهم﴾ فيه أنّ أقلهم كانوا لا يكرهون الحق! **قُلْتُ:** كان فيهم من يترك الإيمان به أنفة واستنكافًا من توبيخ قومه وأن يقولوا: صبأ وترك دين آبائه لا كراهة للحق كما يحكى عن أبي طالب[4].

فإن قُلْتَ: يزعم بعض الناس أنّ أبا طالب صحّ إسلامه! **قُلْتُ:** يا سبحان الله كان أبا طالب كان أخمل أعمام رسول الله ﷺ حتى يشتهر إسلام حمزة، والعباس رضي الله عنهما ويخفى إسلام أبي طالب، دلّ بهذا على عظم شأن الحق وأنّ السمٰوات والأرض ما قامت ولا من فيهن إلا به.

وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ

وأخرجه مسلم في كتاب: المساجد، باب: إستحباب القنوت في جميع الصلاة إذا نزلت بالمسلمين نازلة (الحديث: 1540).
وأخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: القنوت في الصلوات (الحديث: 1442).

(1) سورة يٓس، الآية: 6.

(2) الحاكم في المستدرك 2/ 450.

(3) لم يذكر لها مخرج.

(4) قال أحمد: وأحسن من هذا أن يكون الضمير في قوله: وأكثرهم على الجنس للناس كافة، ولما ذكر هذه الطائفة من الجنس بني الكلام في قوله: وأكثرهم على الجنس بجملته، كقوله: ﴿إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين﴾ وكقوله: ﴿وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين﴾، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿بل جاءهم بالحق﴾ والنبي ﷺ جاء إلى الناس كلهم، وبعث إلى الكافة، ويحتمل أن يحمل الأكثر على الكل كما حمل القليل على النفي والله أعلم. وأما قول الزمخشري: إن من تمادى على الكفر، وآثر البقاء عليه تقليداً لآبائه ليس كارهاً للحق فمردود، فإن من أحب = شيئاً كره ضده، فإذا أحبوا البقاء على الكفر، فقد كرهوا الانتقال عنه إلى الإيمان ضرورة والله أعلم. ثم انجر الكلام إلى استبعاد إيمان أبي طالب، وتحقيق القول فيه أنه مات على الكفر، ووجه ذلك بأنه أشهر عمومة النبي ﷺ، فلو كان قد أسلم لاشتهر إسلامه كما اشتهر إسلام العباس، وحمزة وأجدر؛ لأنه أشهر وللقائل بإسلامه أن يعتذر عن عدم شهرته، بأنه إنما أسلم قبيل الاحتضار فلم يظهر له مواقف في الإسلام يشتهر بها، كما ظهر لغيره من عمومته عليه الصلاة والسلام هذا، والظاهر أنه لم يسلم وحسبك دليلاً على ذلك قوله عليه الصلاة والسلام: «سألت الله تعالى فيه، وأنه بعد ذلك لفي ضحضاح من نار يغلي رأسه من قدميه فإن قيل: لا يلزم من ذلك موته على الكفر؛ لأنّ كثيراً من عصاة الموحدين يعذب بأكثر من ذلك، قلنا: من أثبت إسلامه ادعى أنّ ذلك كان قبيل الاحتضار، فالإسلام جب ما قبله، وتلك الدقيقة التي صار فيها من المسلمين لا تحتمل من المعاصي ما يوجب ذلك والله أعلم.

بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾.

فلو اتبع أهواءهم لانقلب باطلاً ولذهب ما يقوم به العالم فلا يبقى له بعده قوام أو أراد أنّ الحق الذي جاء به محمد ﷺ وهو الإسلام لو اتبع أهواءهم وانقلب شركًا لجاء الله بالقيامة ولأهلك العالم، ولم يؤخر وعن قتادة أنّ الحق هو الله ومعناه: ولو كان الله إلهاً يتبع أهواءهم ويأمر بالشرك والمعاصي لما كان إلهاً، ولكان شيطانًا ولما قدر أن يمسك السمٰوات والأرض، ﴿بذكرهم﴾ أي: بالكتاب الذي هو ذكرهم أي: وعظهم أو وصيتهم وفخرهم أو بالذكر الذي كانوا يتمنونه ويقولون: لو أنّ عندنا ذكرًا من الأوّلين لكنا عباد الله المخلصين، وقرئ بذكراهم.

أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٧٢﴾.

قرئ خراجًا فخراج وخرجا فخرج وخرجا فخراج وهو ما تخرجه إلى الإمام من زكاة أرضك وإلى كل عامل من أجرته وجعله وقيل: الخرج ما تبرعت به، والخراج ما لزمك أداؤه والوجه أنّ الخرج أخص من الخراج كقولك: خراج القرية وخرج الكردة زيادة اللفظ لزيادة المعنى، ولذلك حسنت قراءة من قرأ خرجا فخراج ربك يعني: أم تسألهم على هدايتك لهم قليلاً من عطاء الخلق فالكثير من عطاء الخالق خير.

قد ألزمهم الحجة في هذه الآيات وقطع معاذيرهم وعللهم بأنّ الذي أرسل إليهم رجل معروف أمره، وحاله مخبور سرّه وعلته خليق بأن يجتبي مثله للرسالة من بين ظهرانيهم، وأنه لم يعرض له حتى يدعى بمثل هذه الدعوى العظيمة بباطل ولم يجعل ذلك سلما إلى النيل من دنياهم، واستعطاء أموالهم.

وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾.

ولم يدعهم إلا إلى دين الإسلام الذي هو الصراط المستقيم مع إبراز المكنون من أدوائهم، وهو إخلالهم بالتدبر والتأمل واستهتارهم بدين الآباء الضلال من غير برهان، وتعللهم بأنه مجنون بعد ظهور الحق وثبات التصديق من الله بالمعجزات والآيات النيرة وكراهتهم للحق، وإعراضهم عما فيه حظهم من الذكر يحتمل أنّ هؤلاء وصفتهم أنهم لا يؤمنون بالآخرة.

وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾.

﴿لناكبون﴾ أي: عادلون عن هذا الصراط المذكور وهو قوله: ﴿إلى صراط مستقيم﴾[1].

وأن كل من لا يؤمن بالآخرة فهو عن القصد ناكب لما أسلم ثمامة بن أثال الحنفي، ولحق باليمامة ومنع الميرة من أهل مكة وأخذهم الله بالسنين حتى أكلوا العلهز.

وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾.

جاء أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ فقال له: أنشدك الله والرحم ألست تزعم أنك بعثت رحمة للعالمين، فقال: بلى فقال: قتلت الآباء بالسيف والأبناء بالجوع والمعنى: لو كشف الله عنهم هذا الضرّ وهو الهزال والقحط الذي أصابهم برحمته عليهم ووجدوا الخصب لارتدوا إلى ما كانوا عليه من الاستكبار وعداوة رسول الله ﷺ والمؤمنين وإفراطهم فيها ولذهب عنهم هذا الإبلاس وهذا التملق بين يديه يسترحمونه واستشهد على ذلك بأنا أخذناهم أوّلاً بالسيوف وبما جرى عليهم يوم بدر من قتل صناديدهم وأسرهم فما وجدت منهم بعد ذلك استكانة ولا تضرع حتى فتحنا عليهم باب الجوع الذي هو أشدّ من الأسر والقتل وهو أطم العذاب فأبلسوا الساعة وخضعت رقابهم وجاء أعتاهم وأشدّهم شكيمة في العناد يستعطفك أو محناهم بكل محنة من القتل والجوع فما رؤى فيهم لين مقادة وهم كذلك حتى إذا عذبوا بنار جهنم فحينئذٍ يبلسون كقوله: ﴿ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون لا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون﴾. والإبلاس اليأس من كل خير وقيل: السكوت مع التحير.

وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾.

فإن قُلْتَ: ما وزن استكان؟ **قُلْتُ:** استفعل من الكون أي: انتقل من كون إلى كون كما قيل: استحال إذا انتقل من حال إلى حال ويجوز أن يكون افتعل من السكون أشبعت فتحة عينه كما جاء بمنتزاح.

فإن قُلْتَ: هلا قيل: وما تضرعوا أو فما يستكينون! **قُلْتُ:** لأنّ المعنى محناهم فما وجدت منهم عقيب المحنة استكانة وما من عادة هؤلاء أن يستكينوا ويتضرعوا حتى يفتح عليهم باب العذاب الشديد[2].

---

(1) سورة البقرة، الآية: 142.

(2) قال أحمد: هذا التأويل أسلم وأحق من تأويل من أشتقه من السكون وجعله افتعل، ثم أشبعت الفتحة فتولدت الألف كتولدها في قوله، ينباع من ذفر غضوب جسرة فإنّ هذا الإشباع ليس بفصيح، وهو من ضرورات الشعر فينبغي أن ترفع منزلة القرآن عن ورود مثله فيه لكن تنظير الزمخشري له باستحال وهم، فإن استكان على تأويله أحد أقسام استفعل الذي معناه التحوّل كقولهم استحجر الطين واستنوق الجمل، وأما استحال فثلاثيه حال حول إذا انتقل من حال إلى حال وإذا كان الثلاثين يفيد معنى= = التحوّل لم يبق لصيغة استفعل فيها أثر فليس استحال من استفعل للتحوّل، ولكنه من استفعل بمعنى: فعل وهو أحد أقسامه إذ لم يزد السداسي فيه على الثلاثي معنى والله أعلم، ثم نعود إلى تاويله فنقول المعنى عليه فما انتقلوا من كون التكبر، والتجبر والاعتياض إلى كون الخضوع والضراعة إلى الله تعالى، ولقائل أن يقول استكان يفيد على التأويل المذكور الانتقال من كون إلى كون، فليس حمله على أنه انتقال عن التكبر إلى الخضوع بأولى من العكس وترى هذه الصيغة لا تفهم إلا أحد الانتقالين، فلو كانت مشتقة من مطلق الكون لكانت مجملة محتملة للانتقالين=

وقرىء: ﴿فتحنا﴾ إنما خصّ السمع والأبصار، والأفئدة لأنه يتعلق بها من المنافع الدينية والدنيوية ما لا يتعلق بغيرها ومقدمة منافعها أن يعملوا أسماعهم وأبصارهم في آيات الله وأفعاله، ثم ينظروا ويستدلوا بقلوبهم ومن لم يعملها فيما خلقت له فهو بمنزلة عادمها كما قال تعالى: ﴿فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله﴾[1].

وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾.

ومقدمة شكر النعمة فيها الإقرار بالمنعم بها وأن لا يجعل له ند ولا شريك أي: تشكرون شكرًا قليلاً ﴿وما﴾ مزيدة للتاكيد بمعنى: حقًا.

وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾.

﴿ذراكم﴾ خلقكم وبثكم بالتناسل ﴿واليه﴾ تجمعون يوم القيامة بعد تفرقكم.

وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾.

﴿وله اختلاف الليل والنهار﴾ أي: هو مختص به وهو متوليه ولا يقدر على تصريفهما غيره.

وقرىء: ﴿يعقلون﴾ بالياء عن أبي عمرو.

بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾.

أي قال أهل مكة كما قال: الكفار قبلهم.

قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾

الأساطير جمع أسطار جمع سطر قال: رؤبة، إني وأسطار سطون سطراً.

وهي ما كتبه الأوّلون مما لا حقيقة له. وجمع أسطورة أوفق.

قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾.

أي أجيبوني عما استعلمتكم منه إن كان عندكم فيه علم وفيه استهانة بهم وتجويز لفرط جهالتهم بالديانات أن يجهلوا مثل هذا الظاهر البين.

سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾.

وقرىء: ﴿تذكرون﴾ بحذف التاء الثانية ومعناه أفلا تتذكرون فتعلموا أنّ من فطر الأرض ومن فيها اختراعًا كان قادرًا على إعادة الخلق، وكان حقيقًا بأن لا يشرك به بعض خلقه في الربوبية.

قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾.

قرىء الأوّل باللام لا غير، والأخيران باللام وهو هكذا في مصاحف أهل الحرمين والكوفة والشام، وبغير اللام وهو هكذا في مصاحف أهل البصرة، فباللام على المعنى لأنّ قولك: من ربه ولمن هو في معنى واحد وبغير اللام على اللفظ، ويجوز قراءة الأوّل بغير لام ولكنها لم تثبت في الرواية.

﴿أفلا تتقون﴾ أفلا تخافونه فلا تشركوا به وتعصوا رسله.

قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾.

أجرت فلاناً على فلان إذا أغثته منه ومنعته يعني: وهو يغيث من يشاء ممن يشاء ولا يغيث أحد منه أحدًا ﴿تسحرون﴾.

تخدعون عن توحيده وطاعته والخادع هو الشيطان والهوى.

بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾.

وقرىء أتيتهم وأتيتهم بالفتح والضم ﴿بالحق﴾ بأن نسبة الولد إليه محال والشرك باطل ﴿وإنهم لكاذبون﴾ حيث يدعون له ولداً ومعه شريكاً لانفرد كل واحد من الآلهة بخلقه الذي خلقه واستبد به، ولرأيتم ملك كل واحد منهم متميزًا من ملك الآخرين ولغلب بعضهم بعضًا كما

= جميعاً، والجواب أن أصلها كذلك على الإطلاق ولكن غلب العرف على استعمالها في الانتقال الخصا كما غلب في غيرها والله أعلم، وكان جدي أبو العباس أحمد بن فارس الفقيه الوزير رحمه الله يذكر لي أنه لما دخل بغداد زمن الإمام الناصر رضي الله عنه أظهر من جملة كراماته له أن جمع له الوزير جميع علماء بغداد، وعقد بهم محفلاً للمناظرة وكان يذكر لي أن مما انجر الكلام إليه حينئذٍ هذه الآية، وأن أحدهم وكان يعرف بالأجل اللغوي خصّه الوزير بالسؤال عنها فقال هو مشتق من قول العرب كنت لك إذا خضعت، هي لغة هذلية فاستحسن منه ذلك. قال أحمد: وقد وقفت عليها بعد ذلك في غريب أبي عبيد المروي وهو أحسن محامل الآية وأسلمها والله أعلم، وعلى هذا يكون من استفعل بمعنى: فعل كقولهم استقرّ واستعلى وحال واستحال على ما مرّ، وقد قال لي = بعضهم يوماً لم لا تجعله على هذا التأويل من استفعل المبني للمبالغة مثل استحسر واستعصم من حسر وعصم، فقلت لا يسعني ذلك لأنّ المعنى يأباه وذلك أنها جاءت في النفي والمقصود منها ذمّ هؤلاء بالجفوة والقسوة وعدم الخضوع مع ما يوجب نهاية الضراعة من أخذهم بالعذاب، فلو ذهبت إلى جعلها للمبالغة أفادت نقض المبالغة لأنّ نفي الأبلغ أدنى من نفي الأدنى، وكأنهم على ذلك ذمّوا بنفي الخضوع الكثير وأنهم ما بلغوا في الضراعة نهايتها وليس الواقع، فإنهم ما اتسموا بالضراعة لا بلمظة منها فكيف تنفي عنهم النهاية الموهمة لحصول البداية والله أعلم.

(1) سورة الأحقاف، الآية: 26.

ترون حال ملوك الدنيا ممالكهم متمايزة، وهم متغالبون وحين لم تروا أثر التمايز الممالك وللتغالب، فاعلموا أنه إلّه واحد بيده ملكوت كل شيء.

مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾

فإن قُلْتَ: إذ لا تدخل إلاّ على كلام هو جزاء وجواب فكيف وقع قوله ﴿لذهب﴾ جزاء وجوابًا ولم يتقدّمه شرط ولا سؤال سائل! **قُلْتُ:** الشرط محذوف تقديره ولو كان معه آلهة، وإنما حذف لدلالة قوله: ﴿وما كان معه من إلّه﴾ عليه، وهو جواب لمن معه المحاجة من المشركين ﴿عما يصفون﴾ من الأنداد والأولاد.

عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾

﴿عالم الغيب﴾ بالجر صفة لله وبالرفع خبر مبتدأ محذوف ما والنون مؤكدتان.

قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّى مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾.

أي: إن كان لا بد من أن تريني ما تعدهم من العذاب في الدنيا أو في الآخرة.

رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِى فِى ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٤﴾.

﴿فلا تجعلني﴾ قرينًا لهم ولا تعذبني بعذابهم عن الحسن أخبره الله أنّ له في أمته نقمة، ولم يخبره أقي حياته أم بعد موته فأمره أن يدعو بهذا الدعاء.

فإن قُلْتَ: كيف يجوز أن يجعل الله نبيه المعصوم مع الظالمين حتى يطلب أن لا يجعله معهم؟ **قُلْتُ:** يجوز أن يسأل العبد ربه ما علم أنه يفعله وأن يستعيذ به مما علم أنه لا يفعله إظهارًا للعبودية، وتواضعًا لربه وإخباتًا له واستغفاره ﷺ إذا قام من مجلسه سبعين مرة، أو مائة مرة لذلك وما أحسن قول الحسن في قول أبي بكر الصديق رضي الله عنهما: وليتكم ولست بخيركم. كان يعلم أنه خيرهم ولكن المؤمن يهضم نفسه، وقرئ إما ترئنهم بالهمز مكان تريني كما قرئ: فإما ترئن ولترؤن الجحيم وهي ضعيفة وقوله: ﴿رب﴾ مرتين قبل الشرط وقبل الجزاء حث على فضل تضرع، وجؤار كانوا ينكرون الموعد بالعذاب ويضحكون منه واستعجالهم له لذلك.

وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾

فقيل لهم: إن الله قادر على إنجاز ما وعد إن تأملتم فما وجه هذا الإنكار.

ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾

هو أبلغ من أن يقال: بالحسنة السيئة لما فيه من التفضيل كأنه قال: ادفع بالحسنى السيئة والمعنى: الصفح عن إساءتهم ومقابلتها بما أمكن من الإحسان حتى إذا اجتمع الصفح والإحسان وبذل الاستطاعة فيه كانت حسنة مضاعفة بإزاء سيئة وهذه قضية قوله: ﴿بالتي هي أحسن﴾[1] وعن ابن عباس رضي الله عنهما هي شهادة أن لا إله إلاّ الله والسيئة الشرك وعن مجاهد السلام يسلم عليه إذا لقيه وعن الحسن الإغضاء والصفح وقيل: هي منسوخة بآية السيف وقيل: محكمة لأنّ المداراة محثوث عليها ما لم تؤدّ إلى ثلم دين وإزراء بمروءة ﴿بما يصفون﴾ بما ينكرونه من أحوالك بخلاف صفتها، أو بوصفهم لك وسوء نكرهم والله أعلم بذلك منك وأقدر على جزائهم.

وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾.

الهمز النخس والهمزات جمع المرّة منه ومنه مهماز الرائض والمعنى: أنّ الشياطين يحثون الناس على المعاصي ويغرونهم عليها، كما تهمز الراضة الدواب حثالها على المشي ونحو الهمز الأزّ في قوله تعالى: ﴿تؤزهم أزًا﴾[2].

وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾.

أمر بالتعوّذ من نخساتهم بلفظ المبتهل إلى ربه المكرّر لبدائه وبالتعوّذ من أن يحضروه أصلاً، ويحوموا حوله وعن ابن عباس رضي الله عنهما عند تلاوة القرآن وعن عكرمة عند النزع.

حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾.

﴿حتى﴾ يتعلق بيصفون أي: لا يزالون على سوء الذكر إلى هذا الوقت، والآية فاصلة بينهما على وجه الاعتراض والتأكيد للإغضاء عنهم مستعيناً بالله على الشيطان أن

---

(1) قال أحمد: ما ذكره تقريراً للمفاضلة عبارة عن الاشتراك في أمر والتميز بغيره، ولا اشتراك بين الحسنة والسيئة، فإنهما ضدان متقابلان فكيف تتحقق المفاضلة؟ قلت: المراد: أن الحسنة من باب الحسنات أزيد من السيئة من باب السيئات، فتجئ المفاضلة مما هو أعم من كون هذه حسنة، وهذه سيئة، وذلك شأن كل مفاضلة بين ضدين، كقولهم: العسل أحلى من الخل يعنون: أنه في الأصناف الحلوة أميز من الخل في الأصناف الحامضة، وليس لأنّ بينهما اشتراكاً خاصاً، ومن هذا القبيل ما يحكى عن أشعب الماجن: أنه قال: نشأت أنا والأعمش في حجر فلان، فما زال يعلو وأسفل حتى استوينا. بمعنى: أنهما استويا في بلوغ كل منهما الغاية، أشعب بلغ الغاية على السفلة، والأعمش بلغ الغاية على= = العلية، هذا تفسير كلامه عن نفسه. ونعود إلى الآية، فنقول: هي تحتمل وجهاً آخر من التفضيل أقرب متناولاً، وهو أن تكون المفاضلة بين الحسنات التي تدفع بها السيئة، فإنها قد تدفع بالصفح والإغضاء، ويقنع في دفعها بذلك، وقد يزاد على الصفح الإكرام، وقد تبلغ غايته ببذل الاستطاعة، فهذه الأنواع من الدفع كلها دفع بحسنة، ولكن أحسن هذه الحسنات في الدفع هي الأخيرة لاشتمالها على عدد من الحسنات، فأمر النبي ﷺ بأحسن الحسنات في دفع السيئة، فعلى هذا تجري المفاضلة على حقيقتها من غير حاجة إلى تأويل والله أعلم. فتأمّله فإنه حسن جداً.

(2) سورة مريم، الآية: 83.

يستزله عن الحلم ويغريه على الانتصار منهم، أو على قوله: ﴿وإنهم لكاذبون﴾[1] خطاب الله بلفظ الجمع للتعظيم كقوله: فإن شئت حرّمت النساء سواكم وقوله: الا فارحموني يا إله محمد إذا أيقن بالموت واطلع على حقيقة الأمر أدركته الحسرة على ما فرّط فيه من الإيمان والعمل الصالح فيه.

لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿١٠٠﴾.

فسأل ربه الرجعة وقال:

﴿لعلي أعمل صالحًا﴾ في الإيمان الذي تركته والمعنى: لعلي، آتي بما تركته من الإيمان وأعمل فيه صالحًا كما تقول: لعلي ابني على أس تريد أأسس أسا وأبنى عليه وقيل: فيما تركته من المال وعن النبي ﷺ إذا عاين المؤمن الملائكة قالوا: نرجعك إلى الدنيا فيقول: إلى دار الهموم والأحزان بل قدومًا إلى الله، وأمّا الكافر فيقول: رب ارجعون ﴿كلا﴾ ردع عن طلب الرجعة وإنكار واستبعاد، والمراد بالكلمة الطائفة من الكلام المنتظم بعضها مع بعض وهي قوله: ﴿لعلي أعمل صالحًا فيما تركت﴾[2] ﴿هو قائلها﴾ لا محالة لا يخليها ولا يسكت عنها لاستيلاء الحسرة عليه وتسلط الندم، أو هو قائلها وحده لا يجاب إليها ولا تسمع منه ﴿ومن ورائهم برزخ﴾ والضمير للجماعة: أي أمامهم حائل بينهم وبين الرجعة إلى يوم البعث، وليس المعنى أنهم يرجعون يوم البعث، إنما هو إقناط كلي لما علم أنه لا رجعة يوم البعث إلا إلى الآخرة.

فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾.

﴿الصور﴾ بفتح الواو عن الحسن والصور بالكسر والفتح عن أبي رزين وهذا دليل لمن فسّر الصور بجمع الصورة ونفي الأنساب يحتمل أنّ التقاطع يقع بينهم حيث يتفرّقون معاقبين، ومثابين ولا يكون التواصل بينهم والتألف إلا بالأعمال، فتلغوا الأنساب وتبطل وأنه لا يعتدّ بالأنساب لزوال التعاطف والتراحم بين الأقارب إذ يفرّ المرء من أخيه وأمّه وأبيه وصاحبته وبنيه، وعن ابن مسعود ولا يساءلون بإدغام التاء في السين.

فإن قُلْتَ: قد ناقض هذا ونحو قوله: ولا يسئل حميمًا حميما قوله: وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون[3]، وقوله: ﴿يتعارفون بينهم﴾[4] فكيف التوفيق بينهما؟ **قُلْتُ:** فيه جوابان أحدهما أنّ يوم القيامة[5] مقداره خمسون ألف سنة، ففيه أزمنة وأحوال مختلفة يتساءلون ويتعارفون في بعضها وفي بعضها لا يفطنون لذلك لشدّة الهول والفزع، والثاني أنّ التناكر يكون عند النفخة الأولى فإذا كانت الثانية قاموا، فتعارفوا وتساءلوا.

فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٠٢﴾.

عن ابن عباس الموازين جمع موزون وهي الموزونات من الأعمال الصالحات التي لها وزن وقدر عند الله تعالى من قوله تعالى: ﴿فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنًا﴾[6].

وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾.

﴿في جهنم خالدون﴾ بدل من خسروا أنفسهم ولا محلّ للبدل والمبدل منه لأنّ الصلة لا محلّ لها أو خبر بعد خبر لأولئك أو خبر مبتدأ محذوف.

تَلۡفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمۡ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾.

﴿تلفح﴾ تسفع وقال: الزجاج اللفح والنفح واحد إلا أنّ اللفح أشدّ تأثيرًا والكلوح أن تتقلص الشفتان وتتشمرا عن الأسنان كما ترى الرؤس المشوية، وعن مالك بن دينار كان سبب توبة عتبة الغلام أنه مرّ في السوق برأس أخرج من التنور، فغشي عليه ثلاثة أيام ولياليهنّ وروى عن النبي ﷺ أنه قال: تشويه النار فتقلص شفته العليا حتى تبلغ وسط رأسه وتسترخي شفته السفلى حتى تبلغ سرته[7]، وقرئ كلحون.

قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتۡ عَلَيۡنَا شِقۡوَتُنَا وَكُنَّا قَوۡمٗا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا فَإِنۡ عُدۡنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾.

﴿غلبت علينا﴾ ملكتنا من قولك غلبني فلان على كذا إذا أخذه منك وامتلكه، والشقاوة سوء العاقبة التي علم الله أنهم يستحقونها بسوء أعمالهم قرئ ﴿شقوتنا﴾ وشقاوتنا بفتح الشين وكسرها فيهما.

قَالَ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾.

---

(1) سورة المؤمنون، الآية: 90.

(2) سورة المعارج، الآية: 10.

(3) قال أحمد: يجب أن لا يسلك هذا المسلك في إيراد الأسئلة عن فوائد الكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، وسؤال الأدب أن يقال: قصر فهمي عن الجمع بين هاتين الآيتين، فما وجهه، ولو سأل سائل عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن شيء من كتاب الله تعالى بهذه الصيغة لأوجع ظهره بالدرّة.

(4) سورة يونس، الآية: 45.

(5) قال أحمد: وكثيراً ما ينتهز الزمخشري الفرصة في إنكار الشفاعة، ويشمر ذيله للرد على القائلين بها إذا انتهى إلى مثل قوله: ولا تنفعها شفاعة، لا بيع فيه، ولا خلة، ولا شفاعة، ويتغافل حينئذ عن طريق الجمع بين ما ظاهره نفي الشفاعة، وبين ما ظاهره ثبوتها بحمل الأمر على اختلاف الأحوال في القيامة والله الموفق.

(6) سورة الكهف، الآية: 105.

(7) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة المؤمنون، (الحديث: 3176)، وأخرجه أحمد في المسند 3/88.

﴿اخسؤا فيها﴾ ذلوا فيها وانزجروا كما تنزجر الكلاب إذا زجرت يقال: خسأ الكلب وخسأ بنفسه ﴿ولا تكلمون﴾ في رفع العذاب، فإنه لا يرفع ولا يخفف قيل:

إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾.

هو آخر كلام يتكلمون به، ثم لا كلام بعد ذلك إلا الشهيق والزفير والعواء كعواء الكلاب لا يفهمون ولا يفهمون، وعن ابن عباس إنّ لهم ست دعوات إذا دخلوا النار قالوا: ألف سنة ربنا أبصرنا وسمعنا، فيجابون حق القول: مني فينادون ألفًا ربنا امتنا اثنتين فيجابون نلكم بأنه إذا دعى الله وحده كفرتم فينادون ألفًا يا مالك ليقض علينا ربك، فيجابون إنكم ماكثون فينادون ألفًا ربنا أخرنا فيجابون أو لم تكونوا فينادون ألفًا ربنا أخرجنا نعمل صالحًا فيجابون، أو لم نعمركم فينادون ألفًا رب ارجعون فيجابون اخسؤا فيها، في حرف أبيّ أنه كان فريق بالفتح بمعنى: لأنه.

فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾.

السخرى بالضم والكسر مصدر سخر كالسخر إلا أن في ياء النسب زيادة قوّة في الفعل كما قيل: الخصوصية في الخصوص، وعن الكسائي والفراء أنّ المكسور من الهزء والمضموم من السخرة والعبودية أي: تسخروهم واستعبدوهم والأوّل مذهب الخليل وسيبويه قيل: هم الصحابة وقيل: أهل الصفة خاصة ومعناه اتخذتموهم هزؤًا وتشاغلتم بهم ساخرين ﴿حتى انسوكم﴾ بتشاغلكم بهم على تلك الصفة ﴿ذكرى﴾، فتركتموه أي: تركتم أن تذكروني فتخافوني في أوليائي.

إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾ قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾.

وقرئ: ﴿انهم﴾ بالفتح فالكسر استئناف أي: قد فازوا حيث صبروا فجزوا بصبرهم أحسن الجزاء والفتح على أنه مفعول جزيتهم كقولك: جزيتهم فوزهم ﴿قال﴾ في مصاحف أهل الكوفة وقل: في مصاحف أهل الحرمين والبصرة والشام ففي قال: ضمير الله أو المأمور بسؤالهم من الملائكة وفي قل: ضمير الملك أو بعض رؤساء أهل النار.

استقصروا مدّة لبثهم في الدنيا بالإضافة إلى خلودهم ولما هم فيه من عذابها لأن الممتحن يستطيل أيام محنته، ويستقصر ما مر عليه من أيام الدعة إليها أو لأنهم كانوا في سرور وأيام السرور قصارًا ولأنّ المنقضى في حكم ما لم يكن وصدقهم الله في تقالهم لسنى لبثهم في الدنيا وبوخهم على غفلتهم التي كانوا عليها.

قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾.

وقرئ: ﴿فسل العادين﴾ والمعنى: لا نعرف من عدد تلك السنين إلا أنا نستقله نحسبه يومًا أو بعض يوم، لما نحن فيه من العذاب وما فينا أن نعدها فسل من فيه أن يعد ومن يقدر أن يلقى إليه فكره، وقيل: فسل الملائكة الذين يعدّون أعمار العباد ويحصون أعمالهم، وقرئ العادين بالتخفيف أي: الظلمة فإنهم يقولون: كما نقول.

قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾.

وقرئ: ﴿العاديين﴾ أي: القدماء المعمرين فإنهم يستقصرونها، فكيف بمن دونهم وعن ابن عباس أنساهم ما كانوا فيه من العذاب بين النفختين.

أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾.

﴿عبثًا﴾ حال أي: عابثين كقوله: لاعبين أو مفعول له أي: ما خلقناكم للعبث، ولم يدعنا إلى خلقكم إلا حكمة اقتضت ذلك وهي أن نتعبدكم ونكلفكم المشاق من الطاعات وترك المعاصي، ثم نرجعكم من دار التكليف إلى دار الجزاء فنثيب المحسن ونعاقب المسيء ﴿وانكم إلينا لا ترجعون﴾ معطوف على أنما خلقناكم، ويجوز أن يكون معطوفًا على عبثًا أي: للعبث ولتركككم غير مرجوعين، وقرئ ترجعون بفتح التاء.

فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾.

﴿الحق﴾ الذي يحق له الملك لأنّ كل شيء منه وإليه أو الثابت الذي لا يزول ولا يزول ملكه، وصف العرش بالكرم لأنّ الرحمة تنزل منه والخير والبركة أو لنسبته إلى أكرم الاكرمين كما يقال: بيت كريم إذا كان ساكنوه كرامًا، وقرئ: ﴿الكريم﴾ بالرفع ونحوه ذو العرش المجيد.

وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾.

﴿لا برهان له به﴾ كقوله: ما لم ينزل به سلطانًا وهي صفة لازمة نحو قوله: يطير بجناحيه جيء بها للتوكيد لا أن يكون في الآلهة ما يجوز أن يقوم عليه برهان[1]، ويجوز أن يكون اعتراضًا بين الشرط والجزاء كقولك: من أحسن إلى زيد لا أحق بالإحسان منه فالله مثيبه، وقرئ أنه لا يفلح

---

(1) قال أحمد: إن كان صفة فالمقصود بها التهكم بمدّعي إله مع الله، كقوله: ﴿بل أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً﴾ فنفى إنزال السلطان به، وإن لم يكن في نفس الأمر سلطان لا منزّل، ولا غير منزّل، ومن جنس مجيء الجملة بعد النكرة وصرفها عن أن تكون صفة لها ما قدّمه عند قوله تعالى: ﴿فاجعل بيننا وبينك موعداً = لا نخلفه نحن ولا أنت﴾ حيث أعرب الزمخشري موعداً مصدراً نصاباً لمكاناً سوى، واعترضه بأن المصدر الموصوف لا يعمل إلا على كره، واعتذرت عنه بصرف الجملة عن أن تكون صفة وجعلها معترضة مؤكدة لمعنى الكلام والله أعلم.

بفتح الهمزة ومعناه حسابه عدم الفلاح، والأصل حسابه أنه لا يفلح هو فوضع الكافرون موضع الضمير لأنّ من يدع في معنى الجمع، وكذلك حسابه أنه لا يفلح في معنى حسابهم أنهم لا يفلحون جعل فاتحة السورة قد أفلح المؤمنون.

﴿وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾﴾.

وأورد في خاتمتها أنه لا يفلح الكافرون فشتان ما بين الفاتحة والخاتمة. عن رسول الله ﷺ من قرأ سورة المؤمنون بشرته الملائكة بالروح والريحان وما تقر به عينه عند نزول ملك الموت[1]، وروي أنّ أوّل سورة قد أفلح وآخرها من كنوز العرش من عمل بثلاث آيات من أوّلها واتعظ بأربع آيات من آخرها فقد نجا وأفلح[2]، وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه الوحي يسمع عنده دوي كدوي النحل، فمكثنا فاستقبل القبلة ورفع يده وقال: اللهم زدنا ولا تنقصنا وأكرمنا ولا تهنا وأعطنا ولا تحرمنا وآثرنا ولا تؤثر علينا وارضى عنا وأرضنا، ثم قال: لقد أُنزلت عليّ عشر آيات من أقامهنّ دخل الجنة ثم قرأ قد أفلح المؤمنون حتى ختم العشر[3].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة النور مدنية

﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾﴾.

﴿سورة﴾ خبر مبتدأ محذوف ﴿أنزلناها﴾ صفة أو هي مبتدأ موصوف والخبر محذوف أي: فيما أوحينا إليك سورة أنزلناها، وقرئ بالنصب على زيدا ضربته ولا محل لأنزلناها لأنها مفسرة للمضمر، فكانت في حكمه أو على دونك سورة أو اتل سورة وأنزلناها صفة ومعنى ﴿وفرضناها﴾ فرضنا أحكامها التي فيها، وأصل الفرض القطع أي: جعلناها واجبة مقطوعًا بها والتشديد للمبالغة في الإيجاب وتوكيده، أو لأنّ فيها فرائض شتى وأنك تقول: فرضت الفريضة وفرضت الفرائض أو لكثرة المفروض عليهم من السلف ومن بعدهم ﴿تذكرون﴾ بتشديد الذال، وتخفيفها رفعهما على الابتداء والخبر محذوف عند الخليل، وسيبويه.

﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾﴾.

على معنى فيما فرض عليكم الزانية والزاني أي: جلدهما ويجوز أن يكون الخبر فاجلدوا وإنما دخلت الفاء لكون الألف واللام بمعنى: الذي وتضمينه معنى الشرط[4] تقديره التي زنت والذي زنى فاجلدوهما كما تقول من زنى فاجلدوه، وكقوله: ﴿والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم﴾[5] وقرئ بالنصب على إضمار فعل يفسره الظاهر وهو أحسن من سورة أنزلناها لأجل الأمر، وقرئ والزان بلا ياء والجلد ضرب الجلد يقال: جلده كقولك: ظهره وبطنه ورأسه.

فإن قُلْتَ: أهذا حكم جميع الزناة والزواني أم حكم بعضهم؟ **قُلْتُ:** بل هو حكم من ليس بمحصن منهم فإنّ المحصن حكمه الرجم وشرائط الإحصان عند أبي حنيفة ست الإسلام والحرية والعقل والبلوغ والتزوج بنكاح صحيح والدخول إذا فقدت واحدة منها فلا إحصان وعند الشافعي الإسلام ليس بشرط لما روي أنّ النبي ﷺ رجم يهوديين زنيا[6]، وحجة أبي حنيفة قوله ﷺ: «من أشرك بالله فليس بمحصن»[7].

فإن قُلْتَ: اللفظ يقتضي تعليق الحكم بجميع الزناة

---

(1) ذكره الثعلبي في تفسيره، وابن مردويه، والواحدي في الوسيط 2/408).

(2) قال الزيلعي غريب جدًا، 2/409.

(3) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة المؤمنون، (الحديث: 3173)، وأخرجه أحمد في المسند 1/34. ورواه عبد الرزاق، 3/383، الحديث: 6038).

(4) قال أحمد: وإنما عدل سيبويه إلى هذا الذي نقله عنه لوجهين لفظي ومعنوي، أمّا اللفظي فلأنّ الكلام أمر، وهو يخيل اختيار النصب، ومع ذلك قراءة العامة، فلو جعل فعل الأمر خبراً وبنى المبتدأ عليه لكان خلاف المختار عند الفصحاء، فالتجأ إلى تقدير الخبر حتى لا يكون المبتدأ مبنياً على الأمر، فخلص من مخالفة الاختيار، وقد مثلهما سيبويه في كتابه بقوله تعالى: ﴿مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار﴾ والآية ووجه التمثيل أنه صدر الكلام بقوله: ﴿مثل الجنة﴾ ولا يستقيم جزماً أن يكون قوله: فيها أنهار خبره، فنعين تقدير خبره محذوفاً، وأصله فيما نقص عليكم مثل الجنة، ثم لما كان هذا إجمالاً لذكر المثل فصل المجمل بقوله:= فيها أنهار إلى آخرها، فكذلك ههنا كأنه قيل: وفيما فرض عليكم شأن الزانية والزاني، ثم فصل هذا المجمل بما ذكره من أحكام الجلد، ويناسب هذا ترجمة الفقهاء في كتبهم حيث يقولون: مثلاً الصلاة الزكاة السرقة، ثم يذكرون في كل باب أحكامه يريدون مما يصنف فيه ويبوب عليه الصلاة، وكذلك غيرها فهذا بيان المقتضى عند سيبويه لاختيار حذف الخبر من حيث الصناعة اللفظية؛ وأمّا من حيث المعنى فهو أنّ المعنى أتم وأكمل على حذف الخبر؛ لأنه يكون قد ذكر حكم الزانية والزاني مجملاً، حيث قال: الزانية والزاني وأراد وفيما فرض عليكم حكم الزانية والزاني، فلما تشوف السامع إلى تفصيل هذا المجمل ذكر حكمهما مفصلاً، فهو أوقع في النفس من ذكره أول وهلة والله أعلم.

(5) سورة النور، الآية: 4.

(6) أخرجه البخاري في كتاب: الحدود، باب: أحكام أهل الذمة، (الحديث: 6841)، ومسلم في كتاب: الحدود، باب: رجم اليهود، الحديث: (26 ـ 1699).

(7) أخرجه الدارقطني في كتاب: الحدود والديات وغيره، الحديث: (199).